دلائل الإيجاز والاختصار في الرسائل الديوانية في العصر الأموي عبد الملك بن مروان أنموذجًا

م.د. بلال عبد الرزاق حميد
جامعة سامراء / كلية التربية/ قسم اللغة العربية

الملخص

انمازت الرسائل في العصر الأموي بالإيجاز والاختصار وهذا ما فرضته طبيعة الغرض، ولا سيما رسائل عبد الملك بن مروان، فكانت إما توجيه مباشر، أو اتخاذ موقف حازم ، أو سرعة توجيه مما يستوجب تكثيف الألفاظ ذات المعاني الكثيرة ، فكانت الرسائل تخلو من المقدمات التقليدية والدخول في الغرض مباشرة ، لأن طبيعة الغرض يستدعي الدخول دون مقدمات وكان هنالك تنوعا في دلالة الموضوعات ، ولغة جزلة مكثفة وألفاظ منتقاة بعناية.

الكلمات المفتاحية: الايجاز، العصر الاموي، عبدالملك بن مروان، الايجاز

Evidence of Brevity and Conciseness in Diwan Correspondence during the Umayyad Era: The Case of Abd al-Malik ibn Marwan

L.Dr. Bilal Abdul-Razzaq Hamid
University of Samarra / College of Education / Department of Arabic Language

Abstract:

Correspondence during the Umayyad era was characterized by brevity and conciseness, reflecting the nature of their purposes. This is particularly evident in the letters of Abd al-Malik ibn Marwan, which were either direct directives, firm positions, or rapid communications. Such letters necessitated dense expressions carrying multiple meanings, often omitting conventional introductions and addressing the main purpose immediately, as the nature of the message required directness. Moreover, there was a diversity in the significance of topics, a powerful and concentrated language, and carefully selected vocabulary.

Keywords: Brevity, Umayyad Era, Abd al-Malik ibn Marwan, Conciseness

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) وعلى آله وصحبه اجمعين.

انمازت الرسائل الديوانية في العصر الأموي بجمال الأسلوب وقوة التعبير، فكانت من أبرز مظاهر النثر العربي، وقد تميزت بأسلوبها الخاص الذي يجمع بين البلاغة والوظيفة، فهي وسيلة مهمة للتواصل الرسمي بين الخلفاء والولاة، فاتسمت بسماتٍ فنية ومن أبرزها الإيجاز والاختصار، فقد شاع في هذه الرسائل سمتا الإيجاز والاختصار، بوصفهما سمتين فنيتين لها دلالات أسلوبية ومعنوية، وقد عدَّ الإيجاز في التراث البلاغي العربي مقياسًا للفصاحة، فقد سُئل صحار بن عياش العبدي عن البلاغة فأجاب بأنها الإيجاز، وحينما سُئل عن الإيجاز قال: إن تجيب فلا تبطيء، وتقول فلا تخطيء(الجاحظ، 2002م، 1، ص98). فالرسائل في هذا العصر تأتي مختصرة تارة، ومطولة تارة أخرى بحسب طبيعة الحدث أو الموضوع الذي يُرسل من أجله، فقد ذكر ابن قتيبة ما قاله كسرى أبرويز لكاتبه: ((اجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول " يريد الإيجاز، وهذا ليس بمحمود في كل موضع، ولا بمختار في كل كتاب، بل لكل

مقام مقال، ولو كان الإيجاز محمودًا في كل الأحوال لجرَّده الله تعالى في القرآن، ولم يفعل الله ذلك، ولكنه أطال تارة للتوكيد، وحذف تارة للإيجاز، وكرَّر تارة للإفهام... وليس يجوز لمن قام مقاماً في تحضيض على حرب أو حَمَالة بدم أو صلح بين عشائر أن يُقلِّل الكلام ويختصرهُ، ولا لمن كتب إلى عامَّةٍ كتاباً في فتحٍ أو استصلاحٍ أن يوجز)) (بن قتيبة، د.ت،19_ 20).

وذكر الصولي ميله إلى الإيجاز والاختصار في المراسلات فقال: ((سمعت جعفر بن يحيى يقول لكاتبه: إن استطعتم أن تكون كتبكم توقيعات(التوقيع هو: أن يُستعمل في كل كتاب يكتبه الملك، أو من له أمر ونهي، في أسفل الكتاب المرفوع إليه، أو على ظهره، أو في عُرْضه، بإيجاب ما يُسأل أو منعه... لتُرد على هذا ظلامته، أو ليُنظر في خبر هذا، أو نحو ذلك، وذكر القلقشندي بأن التوقيع: هو الكتابة على الرّقاع والقصص بما يعتمده الكاتب من أمر الولايات والمكاتبات في الأمور المتعلقة بالمملكة، والتحدّث في المظالم ... إذ هو سبيل الإطلاق والمنع، والوصل والقطع، والولاية والعزل إلى غير ذلك من الأمور المهمات والمتعلقات السّنيّة. واعلم أن التوقيع كان يتولاه في ابتداء الأمر الخلفاء، فكان الخليفة هو الذي يوقع في الأمور السلطانية، وفصل المظالم وغيرها. (البطليوسي، 1996م، 195/1) فافعلوا، وقال بعض الكتاب: الإيجاز في الابتداء أمكن منه في الجواب، ما لم يكن منه في إعذار وإنذار ووعود وبدء وفتوح وعهود، والذي عندي أنه يحتاج الكاتب والخاطب والشاعر إلى أن يخرجوا معانيهم في أقواتها من الألفاظ على الاختصار ما لم يحتج إلى إكثار، فإن احتيج إلى ذلك جيء به بما لا بد منه)) (الصولي، 1923م،228_ 229). فالواضح من كلام العلماء أن العرب تميل إلى الإيجاز والاختصار، لكن في مواضع معينة بحسب مقتضى الحال والموضوع.

فالرسائل في هذا العصر تتسم بالطابع الإداري فتأتي في مواضع عديدة مختصرة دقيقة بعيدة عن الإطناب والحشو، دون الإخلال بالمقصود أو تضعف المعنى، فالكلمات تنتقى بعناية، والجمل تُصاغ بتركيز؛ لتعكس قوة الحجة وسرعة التأثير، فتكون بالاعتماد على الألفاظ الدالة ،والجمل القصيرة، والتوظيف البلاغي ولا سيما في رسائل عبد الملك بن مروان الذي عُرف ببلاغته وحرصه على دقة التعبير.

فهذه الدراسة تهدف إلى بيان دلائل الإيجاز والاختصار في الرسائل وتحليلها في العصر الأموي وتحديدًا رسائل عبد الملك بن مروان، مع توظيف المنهج الوصفي التحليلي، فالدلالة مهمة في معرفة قصد الرسالة وبيان هدفها، فكل موضع للرسائل لها دلالتها ومقصدها في بيان معناها.

وقبل الشروع بالحديث عن دلائل الإيجاز والاختصار في الرسائل، لا بد من التعريج على معنى الإيجاز والاختصار في المفهوم اللغوي والاصطلاحي.

ففي المفهوم اللغوي للإيجاز هو : أوجزت الكلام: قصرته(الجوهري، 1987م). وأوجز: قل في بلاغة، وأوجز في القول والعطاء: قلله، وأيضًا يأتي بمعنى أسرع واقتصر(ابن سيده، 2000م).

أما في الاصطلاح: هو ((الجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة)) (الجاحظ، 2003م، 42/3).وهو أيضًا ((دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه)) (بن قتيبة، د.ت، 2/ 212). أما حينما نأتي للاختصار ففي المعنى اللغوي في الكلام هو ((أن تدع الفضول، وتستوجز الذي يأتي على المعنى)) (الأزهري، 2001م). فيكون المعنى متقارب، لكن هناك بعض الآراء تميز الإيجاز عن الاختصار بشيء يسير. فـ ((أَن الِاخْتِصَار هو إلقاؤك فضول الألفاظ من الكلام المُؤلف من غير إخلال بمعانيه ولهذا يقولون قد اختصر فلان كتب الكُوفِيّين أَو غيرها إِذا ألقى فضول ألفاظهم وَأدّى معانيهم فِي أقل مِمَّا أدوها فِيهِ من الألفاظ فالاختصار يكون في كلام قد سبق حُدُوثه وأليفه، والايجاز هو أَن يبنى الكلام على قلَّة اللَّفْظ وَكَثْرَة الْمعَانِي، يُقَال أوجز الرجل فِي كَلَامه إِذا جعله على هَذَا السَّبِيل وَاخْتصرَ كَلَامه أَو كَلَام غَيره إِذا قصره بعد إطالة فَأن اسْتعْمل أَحدهمَا مَوضِع الآخر فلتقارب معنيهما)) (العسكري، د.ت،40). وقد ذكر السيوطي إنَّ ((الإيجاز والاختصار بمعنى واحد ... وقال بَعضُهم الاختصار خاص بحذف الجمل فقط بخلاف

الإيجاز)) (السيوطي، 1974م، 3/ 180). فهناك تقارب واضح بين المعنيين، ولكن بفروق بسيطة جدًا؛ لذلك سيكون التحليل مبنيًا على هذا التقارب في المفهوم بين الايجاز والاختصار.

وبعد أن عرجنا على مفهوم الايجاز والاختصار الآن نبدأ الحديث عن دلائل الإيجاز والاختصار في الرسائل الديوانية في العصر الأموي ونأخذ رسائل عبد الملك بن مروان أنموذجًا، فمن هذه الرسائل رسالة عبد الملك بن مروان إلى أخيه بشر التي كتب فيها: ((أما بعدُ: فإنك أخو أمير المؤمنين يجمعك وإياه مروان بن الحكم، وإن خالدًا لا مُجتمع له مع أمير المؤمنين دون أُمية، فانظر المهلب فولِّه حرب الأزارقة(الأزارقة: اتباع نافع بن الأزرق، ولم تكن للخوارج قطّ فرقة أكثر عددًا منهم، والذي جمعهم من الدّين أشياء منها قَولهم بأن مخالفيهم من هذه الأمة مشركون، وهم الذين خرجوا مع نافع من البصرة إلى الأهواز، فغلبوا عليها وعلى كورها، وما وراءها من بلدان فارس وكرمان في أيام عبد الله بن الزبير وقتلوا عماله بهذه النواحي،

وكان مع نافع من أمراء الخوارج: عطية بن الأسود الحنفي، وعبد الله بن الماحوز وأخواه عثمان والزبير، وعمرو بن عمير العنبري، وقطري بن الفجاءة المازني وغيرهم. (لأسفراييني، 1977م، 62) فإنه سيد بطل مُجرب، فأمدده من أهل الكوفة بثمانية آلاف رجل، والسلام)) (صفوت، د.ت، 2/ 134).الافتتاح بـ (أما بعد) هو أسلوب تقليدي في الرسائل العربية منذ عصر ما قبل الإسلام، ويدل على الدخول في صلب الموضوع، وهي صيغة تقليدية تفصل بين المقدمة والموضوع الأساسي، فالرسالة تعكس أوضاعًا سياسية وعسكرية خصوصًا تهديد الخوارج (الأزارقة) بقيادة نافع بن الأزرق، أما لفظة (يجمعك) فهي دلالة على الفخر والثقة والشرعية لبشر في وضعه في الكوفة، فضلاً عن تقرير لمكانته التنفيذية، أما استعماله لألفاظ (سيد، وبطل) للمهلب هي من تعزيز صورته كقائد موثوق به، وإعلاء لقادة معينين مثل المهلب وتوجيه بإمداده، فالأزارقة فتنة لا يطفئها إلا سيف صارم ، وحينما نأتي إلى عبارته لبشر (إنك أخو أمير المؤمنين... إلخ) فهي تأكيد للولاء الداخلي للأسرة الأموية، وذات لغة سلطوية قوية تعكس مركزية الحكم الأموي وسيطرته على الأقاليم، وفيها تحفيز غير مباشر ليكون على قدر الثقة الممنوحة له، وحينما نأتي على عبارة (لا مُجتمع له مع أمير المؤمنين دون أُمية) فيها تحذير ضمني من الانفراد بالقرار، وإن عبد الملك لا يضع يده مع أحد خارج نطاق البيت العائلي الأموي، والنص يوحي أيضًا بعدم الرضا عنه، وفي المعنى السياسي تحذير للشخصيات التي قد تسعى إلى مكانة مستقلة خارج البيت الأموي، أما عدد الإمداد المتمثل بثمانية آلاف فهي صيغة تضخيم، أما ختام الرسالة (والسلام) للدلالة على الانتهاء وإعطاء طابعًا جديًا ورسميًا للكتاب.

وفي موضع آخر لإحدى الرسائل الديوانية التي تمثل شكلاً من أشكال النثر الفني في الأدب العربي، إذ تمزج بين البلاغة والأسلوب الإداري، فحينما وليَّ عبد الملك أخاه بشرًا البصرة أرسل كتاب إلى أخيه عبد العزيز جاء فيه: ((إني قد وليت أخاك بشرًا البصرة فأشخص معه موسى بن نصير وزيرًا ومشيرًا، وقد بعثت إليك بديوان العراق، فادفعه إلى موسى وأعلمه أنه المأخوذ بكل خلل وتقصير)) (صفوت، د.ت، 2/ 138).

حينما نأتي إلى أسلوب الرسالة فإنه يتسم بالرسمية والإلزام، ويتضح منه أيضًا القوة والوضوح، ويستخدم فيه الحاكم التكليف المباشر مثل: (وليت ، أدفعه ، أعلمه)، تبدأ الرسالة بالإعلام عن قرار سياسي إداري، أما من ناحية الخصائص البلاغية فقد استعمل السجع الخفيف غير المتصنع في (وزيرًا مشيرًا) و (خلل وتقصير)، يخدم النغمة الإيقاعية دون الإخلال بالمعنى، ونرى تقابلاً بين الخلل والتقصير، فكلاهما يدلان على النقص لكن أحدهما إداري وهو (الخلل) والآخر شخصي وهو (التقصير) الجمع بينهما يضفي شمولية بعدم وجود عذر ممنوح لموسى بن نصير، ويعكس حكمه في التوجيه، وتَحمل دلالة على محاسبة القائد الأعلى (المخاطب في الرسالة)، وأيضًا تعكس ترسيخ مبدأ المسؤولية الإدارية العليا، وحرص السلطة المركزية على إحكام الرقابة، مما قد يدفع إلى مزيد من الحرص والانضباط الإداري، وقد جاء في الرسالة أفعال ماضية مثل (وليت، وبعثت) للدلالة على قرارات حاسمة تم اتخاذها، كما ورد في

الرسالة صيغة الأمر (فاشخص، فادفعه ، وأعلمه) ما يعكس انتقال القرار إلى طور التنفيذ والإلزام. فنجد ترابط المعاني والدلالات، واختيار اللفظة المناسبة للمعنى الذي يريده في هذه الرسالة وهو من الأمور التي تُحدث الجمال البلاغي في النص بكلمات مكثفة قليلة ذات معانٍ كثيرة وقد أكد على ذلك عبد القاهر الجرجاني بقوله: ((تؤدِّيَ في الجملة معنًى من المعاني التي لا سبيلَ إلى إفادتها إلاَّ بضَمِّ كلمةٍ إلى كلمةٍ، وبناءِ لفظةٍ على لفظةٍ هل يُتَصوَّر أن يكونَ بين اللفظتين تَفاضُلٌ في الدَّلالة حتى تكونَ هذه أدلَّ على معناها الذي وُضعتْ له من صاحبتها)) (الجرجاني، 1992م،44).

ونعرج على رسالة عبد الملك بن مروان بعد أن أرسل له محمد بن الحنفية يعتزل فيها الأمة فأرسل عبد الملك رسالة إلى الحجاج كانت مختصرة جاء فيها: ((لا تَعرض لمُحمدٍ ولا لأحد من أصحابه)) (صفوت، د.ت، 2/ 140).

فالرسالة هنا واضحة ومختزلة جدًا، وأسلوبها جاء خبريًا إنشائيًا بصيغة النهي (لا تعرض)، فهي تعبر عن قرار سياسي حاسم ينهي عن المساس بشخص محمد بن الحنفية وأصحابه الذي هو تعبير عن حماية جماعية وليست فردية، والمنع هنا يبدو قد جاء ليشمل عدم التعرض بالمعنى الحسي والمعنوي، وكذلك يدل على رغبة في تهدئة الخصومات، والحفاظ على التوازن السياسي، وفي جانب آخر هو تعبير عن عدم المساس به لمكانته الدينية، وتجنب زيادة التوترات وتوحي أيضًا بنوع من العدل والتسامح السياسي، وتنأى بالحاكم عن سياسة الاضطهاد المطلق، وتظهره في صورة المتحكم في الانفعال والانتقام.

ونرى أن الرسالة كانت خالية من الافتتاحيات التقليدية (كالتحميد ، أو من فلان إلى فلان ، أو أما بعد ...إلخ)، فـ للاستهلال وظيفتان إما لجذب انتباه القارئ أو السامع وشده إلى الموضوع، والوظيفة الثانية هو التلميح بأيسر القول عما يحتويه النص، وما يتصل بالغاية والموضوع(النصير، 2009م،23_ 25). فالرسالة بحكم موضوعها لا تحتاج إلى مقدمات إنما الدخول في الغرض المباشر حسب سياق الموضوع الذي يحتاج إلى توجيه حازم، فالرسالة تمزج بين الإيجاز البلاغي، والسياسة والحزم، مع دقة في اختيار الألفاظ لتقدير المواقف، وتعبر عن شخصية عبد الملك الذي عُرف بسياسته، والقدرة على ضبط النفوذ والخصومات.

ونعرج على رسالة أخرى بعد أن أرسل الحجاج رسالة للمهلب يستبطئه في مناجزة(الجوهري، 1987م) الأزارقة، ويستعجزه، فكتب المهلب من فوره رسالة إلى عبد الملك، فأرسل عبد الملك رسالة للحجاج جاء فيها: ((لا تعارض المهلبَ فيما يراه، ولا تعجله، ودعه يدبر أمره)) (صفوت، د.ت، 2/ 152).

هذه الرسالة تمثل توجيهًا من الخليفة عبد الملك إلى الحجاج، فتعبر عن رؤية إدارية للدولة، وتفويض الصلاحيات وفق معايير الكفاءة والخبرة، وتدل على ثقة سياسية عالية في شخصية المهلب، الذي هو صاحب خبرة ميدانية، ومنحه الاستقلال في اتخاذ القرار العسكري بحسب ما يقتضيه الواقع الآني، فالرسالة مباشرة بصيغة الأمر والنهي (لا تعارضه ، لا تعجله ، دعه يدبر أمره)، فهي قصيرة لكنها تحمل في طياتها دلالات مشحونة، فالتوجيه حازم دون الحاجة إلى شروح أو تعليلات طويلة، وتحمل وضوحًا في الهدف، والتحذير من التدخل في شؤون المهلب بأسلوب شديد الإيجاز والاختصار اللفظي، وقد أحدث التوازن الإداري بين الحجاج والمهلب، فالحجاج يمثل سلطة الإدارة المركزية، والمهلب يمثل القيادة العسكرية الميدانية، ويضبط العلاقة بين الطرفين منعًا للتصادم أو التنافس، لضمان فعالية الأداء الإداري والعسكري.

وفي موضع آخر حينما أرسل الحجاج إلى عبد الملك يُغلظه أمر الخوارج مع قطري بن الفجاءة فكتب إليه عبد الملك رسالة جاء فيها: ((أما بعدُ: فإني أحمد إليك السيفَ، وأوصيك بما أوصى به البكريُّ(موسى بن جابر بن أرقم بن مسلمة أو سلمة بن عبيد الحنفي اليمامي نصراني من أهل اليمامة، شاعر مكثر، من مخضرمي الجاهلية والإسلام، يقال له:(أزيرق اليمامة)، وجاء في شعره ذِكر ابن عم له يدعى زيدًا وقيل أخوه. (المرزباني، 1982م،376) زيدًا)) (صفوت، د.ت، 2/ 152).

هذه الرسالة يتسم أسلوبها بالحسم والإيجاز مع الترميز الضمني الذي ضَمن فيها الموروث الثقافي والتاريخي في بناء الموقف السياسي والإداري، فالعبارة مشحونة بدلالات الرمز والقوة، فالافتتاح تقليدي بـ (أما بعدُ) للانتقال مباشرة من المقدمة إلى الغرض المقصود، أما حينما نأتي لعبارة (أحمد إليك السيف) فدلالتها إعطاء أولوية القوة للسيف؛ لأن السيف الوسيلة المثلى لحسم الأمور في هذا المقام، فالوصية تحض على الشدة والقتال، ومن جانب آخر تبرز ثقافته التاريخية، وقدرته على توظيف الدلالة لخدمة هدفه السياسي، فهي تمثل تجسيدًا فنيًا للإيجاز، والرمز السياسي، واستحضار التراث الموروث في الخطاب الإداري.

إن قصة البكري نابعة من موروث تاريخي في أبيات أرسلها موسى بن جابر إلى زيدٍ الذي تضمنت أبياته: (الأندلسي، د.ت، 1/ 68)

(من الطويل).

أقول لزيدٍ لا تترتر فإنهم يرون المنايا دون قتلك أو قتلي**(الترترة: تحريك الشيء، وتَرْتَرَ: تكلم فأكثر. (ابن منظور، 1993م، 4 / 91)**

فإن وضعوا حربًا فضعها وأن أبوا فشدّ وقود النار بالحطب الجزل**(الأزهري، 2001م)**

وإن عضت الحرب الضروس بنابها فعرضة حدّ الحرب مثلك أو مثلي

وفي رسالة أخرى أرسلها عبد الملك إلى الحجاج بعد أن أصبحت فارس كلها بيد المهلب، فبعث الحجاج عليها عماله، وأخذها من المهلب فبلغ ذلك عبد الملك فكتب إلى الحجاج ((أما بعدُ: فَدعْ بيد المهلب خراج جبال فارس، فإنه لا بد للجيش من قوة، ولصاحب الجيش من معونة، ودع له كورة فَسَا ودَرَابجرد(فَسَا: كلمة أعجمية، وعندهم بسا، بالباء، وكذا يتلفظون بها وأصلها في كلامهم الشمال من الرياح: مدينة بفارس أنزه مدينة بها فيما قيل، بينها وبين شيراز أربع مراحل، وهي في الإقليم الرابع ... وأما كورة دارابجرد فإن أكبر مدنها فسا، وهي مدينة مفترشة البناء واسعة الشوارع تقارب في الكبر شيراز وهي أصحّ هواء من شيراز وأوسع أبنية، وبناؤهم من طين وأكثر الخشب في أبنيتهم السّرو، وهي مدينة قديمة ولها حصن وخندق وربض وأسواقها في ربضها، وهي مدينة يجتمع فيها ما يكون ... من البلح والرّطب والجوز والأترج وغير ذلك، وباقي مدن دارابجرد متقاربة. (الحموي، 1995م، 4/ 260،261)، وكورة إصطخر)) (صفوت، د.ت، 2/ 159_ 160) إصطخر: بلدة بفارس من الإقليم الثالث، وهي من أعيان حصون فارس ومدنها وكورها، قيل: كان أول من أنشأها إصطخر بن طهمورث ملك الفرس..

تنتمي هذه الرسالة إلى الطابع الإداري المالي والعسكري، وتظهر موقفًا يوازن بين السلطة المركزية ومتطلبات القيادة العسكرية الميدانية، فاستعمل عبد الملك أسلوب الدخول المباشر في صلب الموضوع، وهي سمة بارزة في الرسائل الأموية الموجزة، فقوة الجيش تكمن في التمويل، والإمداد، والسلاح، والعدة، مما يعني ضرورة دعم القائد بوسائل تمكنه من إدارة الحرب بنجاح، فالمناطق المذكورة في الرسالة هي مناطق زراعية ذات دخل وفير مما يعني تمويل حملته ماديًا، فعبد الملك يظهر فهمًا عميقًا للعلاقة بين المال والعسكر، وإن استمرار الحرب يحتاج إلى استقلال مالي موضعي، فالرسالة تكشف عن البنية الإدارية للدولة الأموية ولا سيما في عهد عبد الملك في إدارة مؤسساته وفق متطلبات الواقع.

وفي رسالة أخرى أرسلها عبد الملك إلى الحجاج بعد وقعة دير الجماجم فكتب إليه في الأسرى جاء فيها: ((أن يَعرضهم على السيف، فمن أقرَّ منهم بالكفر بخروجه علينا فخلِّ سبيله، ومن زعم أنه مؤمن فاضرب عنقه)) (صفوت، د.ت، 2/ 198).

إن الرسالة تحمل في طياتها تعبير دلالي شديد القصد وهو التهديد بالقتل، فالدلالة هنا تقوم على الإيجاز والحسم باستخدام السيف كرمز للعقاب النهائي، أما عبارة (أقر بالكفر) فهي دلالة تعكس تصور الدولة الأموية بأن الخروج على الخليفة كفر سياسي وديني، وفي عبارة (فخل سبيله) تقابل يتضمن التوبة مقابل الاعتراف، والخروج يُقابل بالعفو، أما حينما يُشير بكلمة (زعم) فالدلالة تُظهر موقف السلطة بالتشكيك في صدق من يدعي الإيمان مع التمسك بالخروج، ويظهر موقف السلطة أيضًا أن هذا الادعاء مردود وغير مقبول، فالرسالة في دلالتها تحمل حكمًا إما بالموت أو الحياة، وفيها تدرج عقابي من التهديد إلى الاختبار إلى العقاب أو العفو، فالرسالة بالمجمل العام تحمل دلالة الحزم والشدة مع اختصارها بالتكثيف والوضوح.

ونعرج على رسالة لعبد الملك بعد أن هزم الحجاج ابن الأشعث فكتب للحجاج: ((أما بعدُ: فما لَكَ عندي مثل إلا قدحُ ابن مُقبِل)) (صفوت، د.ت، 2/ 201).

إنَّ ((ابن مقبل يُضرب به المثل في الفوز، وضربه الكميت مثلاً لنفسه حين خرج من السجن، وكان قدح ابن مقبل فوازًا معروفًا بذلك، قد أجاد نعته في شعره وكرر ذكره، وكانت العرب تستأجره وتستعيره وتتيمن به)) (المرزوقي، 1995م،136).

فالرسالة موجزة ومختصرة لكنها شديدة الدلالة، فهي تلميح وهو الذي يكون إيحاءً أقوى من التصريح أحيانًا، إذ يوظف عبد الملك الإيجاز والرمز والمأثور الشعبي مما يدلل على سعة ثقافته الأدبية، واستخدام الأدب أداة للتوجيه السياسي والإداري بأسلوب موجز دون خطاب مباشر، وأيضًا تدلل على مكانة الحجاج عند عبد الملك الذي شبهه بقدح ابن مقبل الذي يُستعار للفوز، كذلك الحجاج يكون كالقدح يُستعار للانتصار وتثبيت أركان الدولة الأموية.

إن الوظيفة الإيحائية أسلوبٌ من أساليب الإشارة والتلميح، وطريقة في الإضمار، وهي وسيلة من وسائل الإيجاز في الكتابة، فالوظيفة الإيحائية تكون إشارة إلى شاهد أدبي من قطعة من نص يحيل عليه الكاتب، أو معنى مضمر يفهمه المُرسل إليه، ولا بد للمُرسل إليه فهم النص الأصلي للشاهد الذي أخذ منه، أو الألفاظ ذات بلاغة وعبارات جزلة تكون العرب قد دأبت على استعمالها، فيكون بذلك الإيحاء أكثر ملاءمة لمقام الترسل من الوظيفة البيانية؛ لأن من خصائص هذا المقام تناسب التخاطب وتكافؤ المتخاطبين في المنزلة الثقافية(بن رمضان، 2007م،489).

وفي موضع آخر نجد رسالة موجزة لعبد الملك بعد أن أرسل له الحجاج رسالة يخبره بطاعة آل المهلب لابن الزبير جاء فيها: ((إني لا أرى نقصًا بآل المهلب طاعتهم لآل الزبير، بل أراه وفاءً منهم لهم، وإن وفاءهم لهم يدعوهم إلى الوفاء لي)) (صفوت، د.ت، 2/ 205).

فالرسالة تمثل بداية مباشرة دون مقدمات، فنَقل الموقف من التهمة إلى المدح، وحول الطاعة لآل الزبير من شبهة إلى منقبة، ويكشف عن دهاء عبد الملك لكسب النفوس دون الصدام معهم، فالوفاء يمثل قيمة عربية أصيلة لبناء رابطة شرعية وأخلاقية بينه وبين المهلب وتعزيزها، فالرسالة تتسم بالوضوح والاختصار مع الإقناع والتبرير والحنكة السياسية والاحتواء، كل هذه الدلائل اختصرها عبد الملك بهذه الكلمات القليلة فلا تحتاج إلى إطالة وإسهاب في الكلام.

أما الرسالة الموجزة الأخرى جاءت بعد أن سمى له الحجاج مُجاعة بن سِعر(مُجاعة بن سِعر بن يزيد بن خليفة السعدي التميمي: أمير من القادة الأشداد. كان مع عمر بن عبيد الله بن معمر، في حرب الأزارقة (سنة 68) وقتل منهم أربعة عشر رجلاً، بعمود كان يقاتل به، في معركة واحدة... ولاه الحجاج على أهل عمان، وكانوا قد صلبوا الوالي الّذي قبله، وهو أخوه" القاسم ابن سعر " فلما وصل إليهم رأى أخاه لا يزال مصلوبًا، فأراد بعض أصحابه إنزاله، فأبي مجاعة. وعاقبهم، ثم أنزله. وعاد إلى الحجاج، فأرسله إلى السند (سنة 75) فغلب على ذلك الثغر، وغزا وفتح أماكن من " قندابيل " ومات بعد سنة بمكران، أي سنة (76هـ). (الزركلي، 2002م، 5، 277) واليًا لخراسان فكتب إليه عبد الملك رسالة

فحواها: ((إنَّ رأيك الذي دعاك إلى استفساد آل المهلب، هو الذي دعاك إلى مُجاعة بن سِعر، فانظر لي رجلاً صارمًا ماضيًا لأمرك)) (صفوت، د.ت، 2/ 205).

فالرسالة سياقها إداري حاد وفيها توجيه معين فاختصرها بكلمات معدودة، فيجد في الحجاج أنه اتخذ قرارًا خاطئًا في اختياره مجاعة بن سعر، وفيه دلالة على اتخاذه قرارين خاطئين فالأول استفساد المهلب، والثاني تعيين مجاعة، مما يدلل على أن الحجاج لديه قصور في هذا الرأي الإداري، وبعد ذلك يطلب منه أن يرشح له رجلاً صارمًا، فهو أمر مباشر، لكنه يستخدم فيه أسلوب الطلب لا الزجر، فعبد الملك يريد الشدة مع الولاء وليس الولاء فقط، فهو في ذلك ينقده نقدًا بناءً ويوجه، ويستعمل الحزم مع المرونة.

ونجد رسالة موجزة لعبد الملك قد خالفت الرسائل النثرية فكانت رسالة شعرية متضمنة بيتًا واحدًا حينما أبطأ ابنه مسلمة في مسيره للروم إذ جاء فيها:

لِمَن الظَّعائنُ سَيْرُهن تَزَحُّفُ سَيْرَ السَّفِينِ إذا تَقَاعسُ تُجْدَفُ(صفوت، د.ت، 2/ 210)

ربط عبد الملك بين المعنى اللغوي للظعائن وبين دلالة ما يريد، إذ إن دلالة الظعائن هي الرحلة البطيئة، وهو رمز الترحال والتباطؤ، وربطها بالتثاقل الذي قصده، وفي البيت الثاني استعار سير السفن إذا تقاعس تجدف، فحينما لا تتحرك بفعل الريح يضطر الملاحون للتجديف، فالاستعارتان تدللان على التباطؤ والثقل في السير وهو ما ربطه مع تباطؤ ابنه في السير إلى الروم، فبدأ باستفهام انكاري يوبخ به هذا التثاقل، وإيصال موقف، وفي الوقت نفسه توجيه له، واللوم دون تعنيف، فهي ذات دلالة إيحائية وصورة بصرية بإيجاز موحي بأسلوب شعري متميز، كما هو معروف عن براعة وفصاحة عبد الملك.

الخاتمة

بعد الانتهاء من البحث لابد من الإشارة إلى أبرز النتائج التي توصلت إليها:

1_ إن الرسائل الموجزة والمختصرة لدى عبد الملك حددتها طبيعة الغرض التي أرسلت لأجله، فهو إما توجيه مباشر، أو اتخاذ موقف حازم، أو سرعة تنفيذ، فهذه المواقف لا تحتاج إلى إطالة وشرح إنما يجب اتخاذ قرار سريع مما يستدعي إيجازها مع تكثيف للمعاني.

2_ خلو أغلب الرسائل من المقدمات التقليدية فهي إما تبدأ بعبارة (أما بعد ، أو تخلو من مقدمة والدخول مباشرة في الموضوع لأن طبيعة الموقف يتطلب الدخول في الغرض دون مقدمات.

3_ سعة ثقافة عبد الملك فقد نوع في استعمال رسائله، فتارة يحيلها على موروث شعبي أو تاريخي، وتارة أخرى يبعث رسالة شعرية، فضلاً عن بلاغته وفصاحته في استعاراته وتشبيهاته ومجازاته.

4_ وجدتُ تنوعًا في دلالة الموضوعات، فتارة يوجه، وتارة يحزم، وتارة يوبخ، وتارة يحتوي، وهذا يدلل على فطنة وذكاء المرسل في معالجة المواقف المختلفة، فلكل مقام مقال.

مصادر

١. ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد. (د.ت) .المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر)تحقيق أحمد الحوفي &بدوي طبانة). القاهرة: دار نهضة مصر.
٢. ابن سيده المرسي، علي بن إسماعيل .(2000) .المحكم والمحيط الأعظم (تحقيق عبد الحميد هنداوي، ط. 1). بيروت: دار الكتب العلمية.
٣. ابن فارس، أحمد. (د.ت) .مقاييس اللغة .مكان النشر غير محدد: دار النشر غير محدد.
٤. ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم. (د.ت) .أدب الكاتب (تحقيق محمد الدالي). بيروت: مؤسسة الرسالة.

٥. ابن منظور، محمد بن مكرم .(1993) .لسان العرب (ط. 3). بيروت: دار صادر.
٦. الأزهري، محمد بن أحمد .(2001) .تهذيب اللغة (تحقيق محمد عوض مرعب، ط. 1). بيروت: دار إحياء التراث العربي.
٧. الأسفراييني، عبد القاهر بن طاهر .(1977) .الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية (ط. 2). بيروت: دار الآفاق الجديدة.
٨. الأندلسي، عبد الله بن عبد العزيز. (د.ت) .سمط اللآلي في شرح أمالي القالي (تحقيق عبد العزيز الميمني). بيروت: دار الكتب العلمية.
٩. البطليوسي، عبد الله بن محمد .(1996) .الاقتضاب في شرح أدب الكاتب)تحقيق مصطفى السقا &حامد عبد المجيد). القاهرة: دار الكتب المصرية.
١٠. بن رمضان، صالح .(2007) .الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم (ط. 2). بيروت: دار الفارابي.
١١. الجاحظ، عمرو بن بحر .(2002) .البيان والتبيين (ط. غير محددة). بيروت: دار ومكتبة الهلال.
١٢. الجاحظ، عمرو بن بحر .(2003) .الحيوان (ط. 2). بيروت: دار الكتب العلمية.
١٣. الجرجاني، عبد القاهر .(1992) .دلائل الإعجاز (تحقيق محمود محمد شاكر، ط. 3). القاهرة: مطبعة المدني؛ جدة: دار المدني.
١٤. الجوهري الفارابي، إسماعيل بن حماد .(1987) .الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية (تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط. 4). بيروت: دار العلم للملايين.
١٥. الحموي، ياقوت بن عبد الله .(1995) .معجم البلدان (ط. 2). بيروت: دار صادر.
١٦. الزركلي، خير الدين .(2002) .الأعلام (ط. 15). بيروت: دار العلم للملايين.
١٧. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن .(1974) .الإتقان في علوم القرآن (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
١٨. الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم. (د.ت) .الملل والنحل .بيروت: مؤسسة الحلبي.
١٩. شيخو، رزق الله بن يوسف. (د.ت) .شعراء النصرانية .مكان النشر غير محدد: دار النشر غير محدد.
٢٠. صفوت، أحمد زكي. (د.ت) .جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة .بيروت: المكتبة العلمية.
٢١. الصولي، محمد بن يحيى .(1923) .أدب الكاتب (تحقيق محمد بهجة الأثري، بمراجعة محمود شكري الآلوسي). القاهرة: المطبعة السلفية.
٢٢. ضيف، شوقي. (د.ت) .تاريخ الأدب العربي: العصر العباسي الأول (ط. 8). القاهرة: دار المعارف.
٢٣. العسكري، الحسن بن عبد الله. (د.ت) .الفروق اللغوية (تحقيق محمد إبراهيم سليم). القاهرة: دار العلم والثقافة.
٢٤. المرزباني، محمد بن عمران .(1982) .معجم الشعراء (بتصحيح وتعليق ف. فرانكو، ط. 2). بيروت: مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية.
٢٥. المرزوقي، أحمد بن محمد .(1995) .أمالي المرزوقي (تحقيق يحيى وهيب الجبوري، ط. 1). بيروت: دار الغرب الإسلامي.
٢٦. النصير، ياسين .(2009) .الاستهلال: فن البدايات في النص الأدبي (ط. 1). دمشق: دار نينوى.